

تطور الخارطة الدينية بالشرق الجزائري إبان الفترة الاستعمارية

(الأسباب والنتائج)

أ/ لوصيف فوزية قسم العقيدة جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

الملخص:

منذ بدايات الاحتلال حاربت السلطات الاستعمارية الدين الإسلامي في جميع رموزه بكل ضراوة، ولم تسمح إلا "للإيكليروس" الرسمي الإسلام الذي صنعه بالمساجد الكبرى لخدمة مصالحها، فلم يكن له أي تأثير ديني ومعنوي على الأهالي. كما تمكنت السلطات من تدجين الطرق والزوايا؛ فحولت أكثرها عن المقاومة والبناء إلى الهدم والتخريب. لكن ظهور الحركة الإصلاحية بزعامة الشيخ ابن باديس بالشرق الجزائري ثم بجميع الوطن؛ أفشل المخطط الاستعماري، حيث عملت بحزم على إحياء الدين الإسلامي، ومهدت النفوس والعقول للحرية الفردية والجماعية الشاملة والأبدية. كما حاربت الآثار التدميرية للوجود المسيحي واليهودي المتعاون على تخريب الثوابت الوطنية.

المقدمة:

كانت الديانات الرسمية بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية هي: المسيحية واليهودية والإسلام، وكانت الجهة الرسمية المسؤولة عن إدارتها وتسييرها تسمى إدارة الأديان، كانت ترعى الأديان الثلاثة، وتقوم بنفقات رجال الدين: البروتستانت، واليهود، والمسلمين، «إنما تستعمل في ذلك حيفاً غريباً: لكل بروتستانتني 8 فرنكات، وكل إسرائيلي 50 سنتيمات، وكل مسلم 7.5 سنتيمات»¹، والوضع لا يحتاج لأي تعليق!

لكن معروف أن الدين الإسلامي الممارس في الجزائر منذ بداية الاحتلال إلى قبيل الحرب العالمية الأولى؛ هو الإسلام الطرقي، وهو خارج الإطار الرسمي. فكيف حافظ على القيادة الدينية طوال هذه الفترة؟ وكيف تعاملت معه السلطات الاستعمارية؟ وما قيمة هذا الإسلام الرسمي الذي تبنته؟ وهل كان له سلطان على الأهالي مع الوجود القوي للإسلام الطرقي؟

وبظهور التيار الإصلاحي صار هناك طرفا ثالثا في ساحة الديانة الإسلامية، ثم استطاع في مدة وجيزة أن يستقطب الجماهير الإسلامية، ويستحوذ على القيادة الدينية في البلاد. فما هي الأسباب الموضوعية وراء هذا التحول في القيادة الدينية بالجزائر؟ ثم لماذا كان تمركزها الأول بالمناطق الشرقية

1/ توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار الكتاب، البلدية، ط2، (1382هـ/1963م)، ص61

قبل غيرها من مناطق الغربية والوسطى على وجه الخصوص؟ وما هي نتائج هذه التطورات والتحويلات على البلاد والعباد بالجزائر؟

دين الإسلامي بين التصييق والترسيم:

ليت السلطات الاستعمارية توقفت عند حد الحيف فحسب اتجاه موظفي الديانة الإسلامية؛ بل إنها لم تدخر جهداً ولا وسيلة لمحاربتة والتصييق عليه مستغلة في ذلك جميع رموزه المادية والمعنوية والبشرية، حيث منذ بدايات الاحتلال عمدت إلى المساجد والزوايا والأوقاف الإسلامية التي كانت معتمد الأمة في مقاومة الجهل والامية، «ونشر الدين الإسلامي وبث علومه بين طبقات الشعب، وتربية العامة تربية أخلاقية واجتماعية»¹، فقضت على إشعاعها الديني والثقافي بخط قلم من «الجنرال دي بورمون الذي أصدر عام 1830م قانوناً يقضي بوضع اليد على الأوقاف الإسلامية»²، ثم تلت هذا القانون قوانين أخرى مشابهة تنص على حق المحتلين «في التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير، أو الكراء»³، أو الإهداء، أو البيع.

ويكفينا دليلاً على هذه التجاوزات الشنيعة بالمنطقة الشرقية للبلاد، ما جاء في أحد التقارير التي أرسلها قائد مقاطعة قسنطينة إلى رؤسائه عن حالة الأوقاف الإسلامية بعد ربع قرن من الاحتلال، يفيد التقرير المحرر بتاريخ: 7 فيفري 1866م؛ أنه من مجموع «95 مسجداً وزاوية كانت كلها تابعة للمسلمين يستفيدون منها ومن أوقافها لصالح نشر الدين والعلم، لم يبقى للمسلمين منها في هذه السنة سوى 32 مسجداً أو زاوية، والباقي وهو 63 مؤسسة دينية فهي إما حولت لصالح المصالح العسكرية الاستعمارية: حولت إلى ثكنات، أو إلى سجون، أو إلى مستشفيات عسكرية، أو إلى مخازن...، وإما حولت لصالح الهيئات التنصيرية: حولت إلى أديرة، أو إلى كنائس، أو إلى ملاجئ ودور أيتام...، وإما أهديت، أو مُلِّكت، أو هدمت بسبب أو بدون سبب»⁴.

أما مدينة عنابة التي كان يوجد بها 39 مدرسة و37 مسجداً وجامعاً وزاويتان قبيل الاحتلال؛ لم يبقى منها بعد الاحتلال سوى 03 مدارس فقط و15 مسجداً⁵. وهذا حال جميع المراكز الدينية العربية الإسلامية في بقية المدن الجزائرية دون استثناء، بل هناك مناطق لم يترك بها أي مركز ديني.

1/ أحمد الرفاعي شرفي: مقالات في الدعوة (الشيخ العربي التبسي)، ج3، دار الهدى، عين مليلة، 2011م، ص105

2/ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 4(1984م)، ص131

3/ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، ص131

4/ عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص245-247

5/ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(1996هـ)، ج3، ص16

أولاً/ الإسلام الرسمي في الجزائر المحتلة وآثاره:

عندما أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة؛ لم تطبق ذلك المبدأ بالنسبة للإسلام، وبقيت شؤون الديانة الإسلامية تحت رحمة اليد الاستعمارية الغاشمة. وإلى «عام 1907م قسمت الجزائر إلى 95 منطقة دينية؛ يترأسها مفتي تنصبه الحكومة»¹، والمفتي المنصب قد يكون مفتياً للمذهب المالكي أو للمذهب الحنفي، وناذراً ما يكون للمذهبين معاً، كما كانت السلطات تنفرد بتسمية الأئمة والخطباء والمؤذنين والحزابين وكل عامل داخل المسجد، وبذلك صار بالجزائر ومساجدها الرسمية «ما يشبه "الإيكليروس" الرسمي الإسلامي، غير أنّ هذا "الإيكليروس"، فضلاً عن كونه موجوداً فقط في المراكز الحضرية الكبرى، حيث توجد المساجد التي تراقبها الدولة، لم يكن يتمتع بأي صيت ولم يكن يمارس أي تأثير ديني ومعنوي ملحوظ على السكان المسلمين»². كما أنه قد جعل لخدمة الاحتلال ولقضاء مآربه، وصار أهله جواسيس «للسلطات الحاكمة تبلغ لها ما خفي من أمر المصلحين، وكان الاستعمار بدوره يتخذ منهم أوصياء على كرسي الإفتاء والقضاء وشؤون المساجد، يستميلونهم بالنياشين المزيفة»³، والعطايا المتنوعة فلا يستطيعون أن يتفوهوا بكلمة حق.

يصف الصحفي الشهير مامي إسماعيل⁴، في إحدى مقالاته التهكمية؛ كيفية تلاعب الاستعمار بالمناصب الدينية الإسلامية وعلى رأسها منصب الإفتاء، فيقول بمناسبة توفي مفتي العاصمة الحنفي: «آل هذا المنصب إلى المزاد العلني؛ حسب أكثر ولاء وإخلاص، إذ سمعنا بأن الجمعية الدينية بالجزائر عينت لمنصب الإفتاء أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا يفهم ولا يعقل ... هل يتقدم للإفتاء المتدربون، أي الذين ابتدءوا يصلحون المساجد بالمكينة، وارتقوا إلى مؤذن إلى حزاب إلى باش حزاب، إلى راوي حديث، إلى إمام، وهم لا يفقهون من العلم شيئاً؟ وإذا قدم إلينا علماء المشرق أو

1/ توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 348 - 350

* الإكليروس هو: النظام الكهنوتي الخاص بالكنائس المسيحية ولم يظهر هذا النظام إلا في القرن الثالث الميلادي وتتفق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مع الكنائس الأرثوذكسية في درجات النظام الكهنوتي إلا أن البابا في الكنيسة الكاثوليكية يتمتع بسلطات أعلى من نظيره في الكنيسة الأرثوذكسية. أما البروتستانت فلا يعترفون إلا بدرجتين فقط من درجات هذا النظام وهما (القس والشماس).

2/ علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر (بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى

1940)، تر: محمد يحياتن، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص 56-66

3/ محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية - نشأتها - تطورها - أعلامها من 1903م إلى 1931م، المجلد

الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ / 1978م، ص 101

4/ مامي إسماعيل: [1307هـ / 1889م - 1376هـ / 1956م]، من أهل قسنطينة، درس بها ويتونس، ولكنه لم

يتم تعليمه وانصرف إلى الصحافة مساعداً لمدير النجاح "عبد الحفيظ الهاشمي"، وقد مات بعد الثورة

التحريرية بعامين بداء الصرع. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 283

المغرب، وطلبوا مقابلة العلامة المدقق ... وقدمنا إليهم (ancien) ** كناس فما جوابنا لهم بعد ذلك؟¹. فكان هؤلاء الموظفون سبباً مباشراً في خلو المساجد الجزائرية من المصلين وطلبة العلم الشرعي.

بكل هذه الظروف والملابسات حرم الشعب الجزائري من معرفة دينه على أكمل وجه؛ بل من معرفة ما هو من الدين بضرورة، مثل: أحكام الصلاة، وقد ذكر الشيخ العربي التبسي أنه التقى بأناس في بعض المناطق من البلاد، وتبين له أنهم «لا يعرفون شيئاً عن صلاة الجنابة»²، وقس على ذلك باقي أمور الدين الأساسية: من طهارة، وصيام، وزكاة. أما مسائل المعاملات؛ فحدث ولا حرج، فلا وجود لها بالمرّة، فكل المعاملات من بيع وشراء وكراء ... إلخ لا يخضع فيها إلا لقانون الاحتلال فقط، ولم يسلم من الأمر إلا بعض مسائل أحوال الأسرة فيما يتعلق بالزواج والطلاق وما شاكلها.

ويصف الشيخ مبارك الميلي أوضاع الجزائر الدينية بقوله: «أما دينها -الجزائر- فهو عبارة عن أقوال جلها يتبرأ منه الدين وبعضها المشروع لا يتصل بالقلوب، أما الأفعال فظن شراً ولا تسأل، ودين كهذا إنما هو هوى يساير صاحبه لا دين يسير الخاضع إليه»³. وصار الجزائريون لا يعرفون من أمور دينهم إلا الشيء القليل جداً، بل هناك من لا يعرفه أصلاً، بل إن الدين الذي يمارس من طرف مسلمي الجزائر دين جديد؛ وإسلام من نوع آخر «هو الإسلام الجزائري ... الذي صنعه فرنسا، لأنها لا تتغي الإسلام الحقيقي دين الله، ولا تأذن له بالاستقرار في الجزائر»⁴. هذا بالنسبة للدين الرسمي الذي صنعه فرنسا وأرادت فرضه على الأهالي، ولم يكن يتمتع «بأي صيت ولم يكن يمارس أي تأثير ديني ومعنوي ملحوظ على السكان المسلمين»⁵.

ثانياً/ الإسلام الطريقي وآثاره: لقد كان الإسلام الممارس بالجزائر إلى غاية الحرب العالمية الأولى كان محصوراً في النزعة الصوفية الطرقية المرابطية، حيث كانت القوة الدينية الوحيدة المهيمنة في الجزائر،

** /ancien: كلمة فرنسية بمعنى: قديم. استعملها صاحب النص بغرض التهكم من الوضع الذي آلت إليه

المناصب الدينية الإسلامية بالمساجد الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية

1/ محمد ناصر: المقالة الصحفية، ص 102-103

2/ أحمد الرفاعي الشرفي: مقالات في الدعوة، ص 104

3/ مبارك الميلي: حركة العلم والدين، جريدة البصائر، السنة 1، ع7 (21 ذي القعدة 1354هـ/14 فيفري

1936م)، ص 2-3

4/ أحمد الرفاعي الشرفي: مقالات في الدعوة، ص 104-105

5/ علي مراد: الحركة الإصلاحية، ص 56-66

وهي ممثلة الإسلام الحقيقية في البلاد، وقد كان المرابطون وأتباعهم «وتنظيماتهم المختلفة ذات حضور قوي في المدن والقرى وحتى في القبائل الرحل»¹.

أ/ انتشار الطريقة بالشرق الجزائري: من الناحية الجغرافية فإن الغرب الجزائري قد انتشرت فيه الطرق التالية: الشاذلية، والقادرية، والتجانية، والطيبية، والدرقاوية، والزيرية. بينما شاع في الشرق الجزائري الطرق التالية: الرحمانية، والحنصالية، والشابية، والقادرية، والشاذلية،² والطيبية كذلك. هذا لا يعني أن هذه الطرق وحدها كانت منتشرة في الجزائر؛ بل إن هناك تقريرا مفصلا أعده رجال الاستخبارات الاستعمارية في الجزائر يرفع عددها إلى ثلاثة وعشرين (23) طريقة، وتظم تحت لوائها (295189) من الأعضاء، ويشرف على أعمالها سبعة وخمسون (57) شيخا، وستة آلاف (6000) عامل منهم مقدمون ووكلاء ونواب وغيرهم، ولها (349) زاوية لنشر التعليم الديني وممارسة العبادة، وتجمع من الأموال كل سنة حوالي سبع ملايين من الفرنكات 10 من منخرطها.

المنطقة	أهم مراكز الفرعية	أهم الطرق المتواجدة بها
القسنطينية*	قسنطينة، عنابة، سوق أهراس، قالمة، سدراتة، عين مليلة، مسكيانة، سيدي ناجي، خنشلة، باتنة، بسكرة، طولقة، أولاد جلال، فج مزالة، سطيف، بركة، ميله، جبال الأوراس	الرحمانية الطيبية الحنصالية الشابية
الجنوبية الصحراوية	عين ماضي، تماسين، الأغواط، ورقلة، تقرت، القليعة، الوادي	التجانية. الطيبية
الوهرانية	تيارت، وهران، مغنية، عين الصفراء	الطيبية. الدرقاوة
القبائلية	ذراع الميزان، باليسترو، طابلاط، قوراية، جبال جرجرة، أقبو	الرحمانية زاوية سيدي عبد الرحمن الإيلولي، زوايا مستقلة
التلية والساحلية	الشلف، مازونة، بوقريط، مستغانم،	السنوسية، العليوية

وهذا الجدول³ يبين مدى انتشار المرابطة عبر الوطن غداة الحرب العالمية الأولى

1/ المصدر نفسه، ص 66

2/ علي مزاد: الحركة الإصلاحية، ص 65

3/ نقلا عن: علي مزاد: الحركة الإصلاحية، ص 66

* / يقصد بها أهم المناطق التابعة لقسنطينة حسب التقسيم الإداري في الحقبة الاستعمارية

ولا يهمننا في هذه العجالة إلا أشهر الطرق المنتشرة بالشرق الجزائري وهي على التوالي:

1/ الطريقة الرحمانية: وهي تتفرع عن الطريقة الخلوتية، نسبة إلى عمر الخلوتي ت(800هـ) وتنسب كذلك إلى كريم الدين الخلوتي الصوفي المصري ت(986هـ)، كما تنسب كذلك إلى محمد البالسي الخلوتي وغيرهم¹، جاء بها إلى الجزائر محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزاوي الجرجري، من قبيلة آيت اسماعيل من عرش قشطولة²، ولد بين أهله ما بين (1127هـ و1142هـ)، رحل إلى المشرق حوالي (1152هـ)، حيث ظل مدة طويلة قدرت بأكثر من ربع قرن، عام بعدها إلى موطنه الأم بطريقة جديدة سنة (1177هـ)³، فسميت باسمه "رحمانية"، توفي الشيخ بن عبد الرحمن ودفن بضاحية الحامة بالعاصمة "الجزائر" سنة (1208هـ)⁴، وتولى أمر الطريقة بعده خليفته علي بن عيسى المغزي، الذي ترك له جميع كتبه وأرضه وأوقاف الزاوية وغير ذلك، وذلك بشهادة أهل آيت اسماعيل⁵، اشتهرت الطريقة برفع راية العلم والجهاد، وقد داع صيتها داخل الجزائر وخارجها؛ مثل الجارة تونس، وعد لها بالجزائر وحدها (156000 منخرط و177 زاوية)⁶.

2/ الطريقة الحنصالية: وهي من فروع الشاذلية، أسسها سعيد بن يوسف الحنصالي، من المغرب الأقصى ت(1702م)، وهو من حنصالة جنوب فاس، حملها إلى الجزائر تلميذه سعدون الفرجيوي⁷ وكما قال الشيخ مبارك الملي: من المعلوم عند الحنصالية أن شيخهم سوغ لهم الملاهي وتمتيع النفس بما تشتهي⁸، وبذلك تلتقي مع العيساوية في عدة أعمال مثل: الرقص، والأعمال البهلوانية، والسحر.

3/ الطريقة الشاذلية: نسبة إلى الشيخ أبي المسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، نسبة إلى شاذلة قرية كانت بالقرب من تونس، ولد بقبيلة غمارة قرب سبتة سنة (1175م أو 1197م)، وتوفي سنة (1258م)، ودفن بمدينة الحميترا بالصعيد المصري⁹. تأسست في النصف الأول من القرن

1/ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص252

2/ سماها أبو القاسم سعد الله " قشطولة " أما عبد الرحمن الجيلالي فسمها " قشطولة " (في تاريخه العام: ج3، ص252)، أما المدني في كتاب الجزائر، ص353 فسمها " قشطولة ".

3/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص514

4/ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص252

5/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص514

6/ توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص353

7/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص86 - 87

8/ مبارك الملي: رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، ط3 (1403هـ / 1982م)، ص277

9/ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص251

13م، وتعد من أول الطرق التي أدخلت التصوف إلى بلاد المغرب، واتخذت من مدينة مراكش مركزا لها.

4/ الطريقة القادرية: هي فرعا من الجنيديّة نسبة للجنيدي (ت 910م)، وتنسب إلى الشيخ محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد، المولود سنة (1077م) ببلاد جيلان بطبرستان، توفي سنة (561هـ / 1156م) ببغداد¹، ويرجع المؤرخون تاريخ تأسيس أول زاوية لها بالجزائر إلى عام (1785م) من طرف الشيخ الحاج مصطفى الغريسي² جد الأمير عبد القادر الجزائري، هذا الأخير الذي أصبح ثاني خليفة لهذه الزاوية بعد والده محي الدين، وهي الزاوية التي تمثل رئاسة الطريقة القادرية بالجزائر.

5/ الطريقة الطيبية: أسسها الشيخ عبد الله الشريف (ت 1089هـ - 1689م) في قبيلة بني عروس في جبل علام بالمغرب، أما اسمها "الطيبية" فنسبة لخليفته الثالث (أخوه) "الطيب" الذي ظل على الزاوية من سنة (1127 هـ) إلى (1181 هـ)³، أما عن تاريخ دخولها الجزائر فيرجح أبو القاسم سعد الله أنه كان في عهد ابنه الخليفة الأول "محمد بن عبد الله"⁴، وقدر عدد المنخرطين فيها بـ 22000 منخرط، ولها 8 زوايا بالجزائر في عهد الاحتلال.

ب/ آثار الطريقة على المجتمع: لا يخفى على أي باحث مدقق مدى مساهمة الطرق الصوفية في تعليم الدين الإسلامي ولغته العربية منذ بدايات ظهورها وانتشارها، حيث حرصت معظمها على تحفيظ القرآن الكريم للكبار والصغار، وذلك عبر عدة أجيال. كما احتضنت اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وأنفقت بسخاء في سبيل ذلك⁵. فكانت بالفعل من أهم المراكز العلمية «التي كونت دائما في هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الشريف»⁶ والسنة المطهرة. فالطرق الصوفية قد ساهمت مساهمة فعالة في المحافظة على الحركة الثقافية والعلمية والفكرية خلال العهد الاستعماري بالجزائر.

لقد اعتمد الاستعمار لهدم الإسلام عدة وسائل؛ رأينا بعضها في محاربته لرموز الثقافة الإسلامية ومؤسساتها ورجالها، وكما نلمحها في جهوده المضنية من أجل نشر الإلحاد بين الشباب الجزائري. أضف إلى ذلك فقد عمد إلى استغلال العامة من الناس وتخدير عقولهم؛ بنشر الخرافات

1/ محمد موهوب بن حسين: وصايا وأدعية للشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الفكر، بيروت، ص 7- 24

2/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 520 - 521

3/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 522

4/ المصدر نفسه، ج 1، ص 523

5/ يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، ج1، ص 344 - 345

6/ توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 351

والأباطيل التي ما أنزل الله بها من سلطان، وعمل على نشرها في الأوساط الإسلامية بكل الوسائل وبالاستعانة بأصناف الدجالين والمشعوذين وفي مقدمتهم الكثير من ذوي النفوس الضعيفة من أهل الطرق والزوايا الجزائرية، التي تحولت عن رسالتها التعليمية والأخلاقية إلى الدروشة والشعوذة والدجل. فانتشرت الخزعبلات والبدع، وصارت مظاهر التدين عند أغلبية الجزائريين تكاد تنحصر في: «ضرب الدفوف والرقص واختلاط الرجال بالنساء... وأكل الحشرات السامة، والتمرغ في الأشواك»¹ والتمسح والتبرك بالأشجار والأحجار وحتى الكلاب²، والاستشفاء بالفكارين "السلاحف" والثيران والتيوس³، والديوك السود... وأعمال الدجل والشعوذة والسحر؛ بل وحتى تعاطي المخدرات عند بعضهم. ولهذه المظاهر وصف الشيخ الإبراهيمي الطرقية بأنها «علة العلل في الإفساد ومنبع الشرور، وإن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء وغفلة عن الحياة، والحاد في الناشئة فمنشؤه من الطرق، ومرجعه إليها»⁴.

ثالثاً/ ظهور الحركة الإصلاحية بالشرق الجزائري وانتشارها الواسع وآثرها:

كان بإمكاننا أن ننحى على نهج بعض الدارسين والباحثين ونؤرخ للفكر الإصلاحي بالجزائر (ببداية حركة التعليم التي انطلق بها الشيخ ابن باديس)⁵ بقسنطينة سنة 1913م، لكن في هذا الموقف إجحاف في حق التاريخ والحقيقة، وإجحاف أكبر في حق من سبقوه وقدموا ما استطاعوا إليه سبيلاً لنصرة الفكرة الإصلاحية، وذلك لأن وجود اختلاف في المناهج وفي القوة وفي مستوى التأثير؛ لا يعطينا الحق أن نهمل تلك الجهود بالمرة، فهي وإن لم تكن في قوة وتأثير جهود الشيخ ابن باديس ومن معه؛ فيكفي أنها كانت فاتحة الطريق للفكرة الإصلاحية، ولا نبالغ إذ نقول أنها كانت من أهم الأسباب التي مهدت الطريق لمن جاء بعدها لقبول تلك الأفكار التنويرية الجديدة بين مختلف الأوساط الجزائرية. فيكفي أن نمثل على تلك الجهود بأعمال هؤلاء الفقهاء الذين حاولوا تحطيم جدار التقليد والجمود في وقتهم؛ وحاولوا التغيير والتجديد كذلك ومنهم: الشيخ ابن العنابي⁶ في أوائل القرن

1/ محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص76

2/ ذكر الشيخ مبارك الميلي في رسالة الشرك: أنه قد تواتر أن كلاب عبد الرحمان بن الحملوي هامت ذات سنة في عدة جهات فكان الناس يكرمونها بالذبائح والضيافات ولكنهم يؤذونها بانتزاع شعورها تبركا وزلفا

3/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص86-87

4/ سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص54

5/ سعيد عليوان: التنصير وموقفه من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر، ص131-132

6/ ابن العنابي محمد بن محمود بن محمد بن حسين [1189-1267هـ/1775-1851م]، عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث، مست جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية، نفي من الجزائر قبل نهاية 1831م،

التاسع عشر 19م، ثم في أواخر القرن التاسع عشر 19م وبداية القرن العشرين 20م نجد أمثال: الشيخ ابن مهنا القسنطيني، والشيخ المجاوي¹، وكذا الشيخ ابن سماية، والشيخ أطفيش، والشيخ الهاملي، وهما من كبار زعماء الإصلاح بالجنوب الصحراوي الجزائري.

إذاً ففكرة الإصلاح الديني كانت موجودة ولها أنصارها في مختلف الأوساط منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، ثم ازدادت العناية بها أكثر قبيل الحرب العالمية الأولى وبخاصة بعد انتشار الصحافة العربية الجزائرية، وقد كان هناك اتفاق تام بين أنصار الإصلاح الديني أن على الإصلاح أن يقاوم طائفتين في آن واحد: الطائفة الأولى جامدة الفكر يمثلها رجال الدين المقلدين المتمزتين، مشايخ الطرق، والعامّة المبهورة بالآراء الطرقية، والطائفة الثانية جاحدة مبهورة بالمدنية الغربية فاستسلمت للتقليد الأعمى وتكررت لأصولها العربية والإسلامية، وهما من (عبر عمر راسم عنهما بأبناء المرابطين، وأصحاب الرادنجوت*، وعمر بن قدور² عبر عنهما بأصحاب السبح ذات الحب الغليظ، والملحدّين، أما ابن الخمار³ فعبر عنهما بمشعوذ محتال ومتفرنج مختال)¹،

وانتهى إلى مصر أقام بالإسكندرية وتولى بها وظيفة الفتوى الحنفية في عهد محمد علي، له كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، دعا فيه إلى ضرورة تعلم المسلمين عن الأوروبيين ما اخترعه من صنائع ونظم، وخاصة في مجال الجند برز فيه كمجدد إسلامي في ميادين سبقه فيها أمثال: الطهطاوي، الأفغاني ومحمد عبده، عمر بن قينة: شخصيات جزائرية، ص21-22-24

1/ يعتبر من كبار المصلحين الجزائريين في عصره المتأثرين بالنهضة الشرقية، ويكفي أن الشيخ حمدان لوني، أستاذ الشيخ ابن باديس، كان من تلاميذه، ثم ومن غريب المصادفات أنه في السنة التي توفي فيها المجاوي؛ ابتدأ ابن باديس حركته التعليمية بقسنطينة، فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج (انظر: عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ص24

* / الرادنجوت: هي كلمة فرنسية معناها المعطف الطويل الذي يبدو أنه شعاراً للشباب الجزائري المتفرنج. محمد ناصر: المقالة، ص78

2/ عمر بن قدور (1305هـ/1886م - 1351هـ/1932م): كاتب وشاعر، ومن رواد الصحافة العربية الوطنية في الجزائر، اشتهر باتجاهه السلفي الإصلاحي، ولد بعاصمة الجزائر ونشأ وتعلم بها، أنشأ جريدة "الفاروق" في 28 فبراير 1913م، نشر عدة مقالات في صحف مصرية، وآستانية، نفي إلى الأغواط حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بعدها اعتزل وتصوف، من آثاره "الابداء والإعادة في مسلك سائق السعادة" في التصوف. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص243

3/ ابن الخمار سعد الدين بلقاسم بن الخمار [1304-1373م/1885-1952م] كاتب شاعر، له اشتغال بالصحافة، من دعاة الإصلاح، كان يكتب بالعربية والفرنسية، من أهل ليانة قرب بسكرة، تعلم بزواوية طولقة، حاول أن يجدد مضامين الشعر الجزائري ولكنه لم يستمر في هذا المجال، له مقالات وقصائد إصلاحية، نشرت في جريدة الفاروق، كما نشر بعضها بجريدة الإقدام بامضاء جزائري، إلتحق بصفوف الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى وتوفي في باريس برتبة عقيد، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص135

ومهما كانت المسميات فكلتا الطائفتين عطلت الفكر الإسلامي عن الإنتاج الإيجابي والإبداع الذي هو من خصائص الدين الإسلامي الحنيف.

وعلى الرغم من كل ذلك الحماس والحمية نحو الإصلاح الديني فالكتابات حوله قبل الحرب لم تصل إلى درجة النضج بعد؛ لأنها أولاً كانت مواقف وآراء فردية، وثانياً لأنها كانت إما (هجوماً عنيفاً كهجوم عمر راسم، أو تناولاً عاماً كتناول عمر بن قنبر، أو وصفاً أدبياً كوصف ابن الخمار أو الخوارزمي)²، أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد توحدت الجهود وتعاضدت وانتظمت، فتحوّلت الآراء الإصلاحية إلى حركة إصلاحية، كما تحررت المواقف من الهجوم العاطفي والتناول العام أو الوصف الأدبي لترتقي إلى مرحلة النضج الحقيقي للفكرة الإصلاحية، الذي اكتمل إشعاعها مع ميلاد حركة الشيخ عبد الحميد بن باديس وأصحابه وتلاميذه؛ التي اشتد عودها مع رجوع طلبة العلم المتخرجون من الحجاز والمشرق والمغرب، أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي (عام 1920م)، وفي سنة 1925م وما بعدها أمثال: الشيخ مبارك الميلي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ الزاهري، والشيخ خير الدين،... وغيرهم. التف هؤلاء ومعهم الكثير حول كلمة الإصلاح بقيادة شخصية أعطاهما البارئ سبحانه كل مميزات الأستاذ القائد وهو الشيخ ابن باديس، بمدينة هي قلب الشرق الجزائري، وهي مقصد كل طالب علم؛ سواء تعلم بها، أو مروراً بها نحو المعاهد العلمية خارج الوطن (بتونس، والمشرق، والحجاز). ثم إن أكثر رجال الإصلاح كانوا تابعين لهذه المدينة، أي من المناطق الشرقية للبلاد، فكان أدعى إلى توطيد الصلات ووسائل التقارب الجغرافي قبل التقارب الفكري.

ولعلى أهم وسيلة تناقشت بها آراءهم واقتربت من خلالها أفكارهم؛ كانت الصحافة الإصلاحية؛ وفي مقدمتها جريدة الشهاب، حيث كانت النموذج الأمثل للعمل الجماعي المتكامل والنافع، لأنها استطاعت - بتوفيق من الله تعالى ثم بتفاني أصحابها وإخلاصهم - أن تجاوزت مفهوم الجريدة لتصبح مدرسة قائمة بذاتها، فهي مدرسة الإصلاح الأولى؛ لنصرة الإسلام، ولخدمة اللغة العربية، ولتلقين التاريخ وتعليم الوطنية، ولتقديم كل ما ينفع البلاد والعباد، ولذلك كانت إحدى أهم قنوات الالتحاق بالحركة الإصلاحية، وقد وصفها الشيخ التبسي قبل التحاقه بالحركة الإصلاحية بقوله: «جريدة الشهاب ظاهرة من ظواهر الحياة، نرجو منها أثر طيباً في حياة الجزائر الدينية والأدبية،... وجريدة الشهاب كنز من كنوز السنة ينقل إلى قرائه ما لذ وطاب مما تنقطع الأعمار قبل الوصول إليه ليقبّس منها من يريد الله به خيراً. وجريدة الشهاب مدرسة شعبية عصرية، على أحدث نظام، وأشهى

¹ / محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص104

² / المصدر نفسه، ص 106

أسلوب، فيها تلتقي الديانة الإسلامية بالمدنية الصحيحة العصرية، لا تفتأ تهدي إلى قرائها من مختلف العلوم، وضروب المعارف ما تقر به العين، وتحسد عليه الجزائر»¹.

ثم كللت جهود هؤلاء بإنشاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" عام 1931م التي أصبحت الناطق الرسمي للفكر الإصلاحي بالجزائر، وداع صيتها في جميع القطر الجزائري وكثر أنصارها وأتباعها، وصارت في مواجهة دائمة مع أصحاب الدين الإسلامي التقليدي (الطريقون وأتباعهم) من جهة، وفي مواجهة المخططات الاستعمارية من جهة ثانية.

درس رجال الإصلاح واقع الأمة بتعمق، وأدركوا أسباب الضعف والخلل فيها، فعلموا علم اليقين أن جوهر القضية في انحطاط المسلمين يتمثل في تركهم المنهج الرباني الشامل الكامل، وابتعادهم عن القرآن والسنة علما وعملاً، فضلوا السبيل، « واستحبوا العمى على الهدى، وأضاعوا ما خلص من أيديهم من تراث أسلافهم وانحلت عزائمهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون عاقبة ما سيحقيق بهم، ولم يرفعوا بما أتى به رسول الله (ﷺ) رأساً، ولا تأسوا بمن أوصاهم بالتأسي به، فحصدوا الخسران المبين، ونزل بهم البلاء المقيم... »².

لا سبيل للخروج من هذا البلاء إلا بثورة شاملة على أسباب الانحطاط، وبدابتها الإنسان لأنه الأصل ثم الجماعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³، وتغيرها يكون بتطهير بواطنها من كل ما اعترها من « ضلالات ملأت الأدمغة، وعلقت بالعقول، وفرخت في الصدور »⁴، فطمست بريق الإيمان بمعاني شركية قضت على صفاء القلوب، وشلت حركة العقول فصيرتها إلى موات، فانعكس كل ذلك في مظاهر العبودية لغير الله، وحالة الذل والهوان أمام أرذل خلق الله - بشر أو شجر أو حجر...-، فابتعد العباد عن شعائر رب العباد واتخذوا من قوانين البشر سنن تركها لا يغتفر.

إن علماء الجمعية هدفوا بجميع الوسائل التي كانت متاحة لديهم؛ إلى دفع الفرد المسلم والأمة الإسلامية نحو حركة تحررية شاملة تقوم على التوحيد، فتنتقل بتحرير الذات من جميع القيود الداخلية والخارجية المشبطة عن التغيير للأحسن، وتنتهي بنتيجة حتمية ومنطقية؛ هي حركة تحررية ضد الاستعمار. فالثورة التحريرية عندهم ليست غاية لحد ذاتها، بل هي مرحلة منطقية لا بد منها، وهي جزء صغير من مشروع كبير، بدأ قبل الثورة ويستمر بعدها استمرارية خلود، لأن الثورة ليست مرحلة زمنية

1/ أحمد الرفاعي شرفي: مقالات وآراء، ج3، ص85-89

2/ المصدر نفسه، ج3، ص61

3/ الرعد، الآية 11

4/ أحمد الرفاعي شرفي: مقالات وآراء، ج3، ص62

محدودة؛ بل هي مشروع نهضوي وحضاري وإنساني يرمي إلى الخلود بخلود رسالة الإسلام «الذي يدعو معتنقيه إلى أن يكونوا في هذا العالم: المثل الأعلى، وحملة المبادئ الحية التي تطارد الجهالات والأوهام، والخرافات وتضع الأمة الإسلامية في موضع أمة غنية، عالية، سائرة في الطليعة الأولى من الأمم الحية»¹.

بعزيمة وثبات انطلق رجال الإصلاح بكل وسيلة متاحة: بالعمل الصحفي في الجرائد والمجلات، وبالتعليم، والوعظ والإرشاد...، كل في جهته المكلف بها يجاهد بالنفس والنفيس، والجدير بالذكر أنّ الطلائع الجهادية الأولى في الإصلاح، كانت مراكزها بالشرق الجزائري، وجهود الشيخ ابن باديس في قسنطينة وما جاورها تغني عن أي تعليق، ومثله صاحبه ورفيق دربه، الأبراهيمي بمدينة سطيف، قبل أن ينتقل إلى مدينة تلمسان، وكذلك الشيخ الميلبي وجهوده المعروفة في مدينتي قسنطينة وميلة، قبل رحيله إلى مدينة الأغواط لنشر الدعوة الإصلاحية.

مثلهم الشيخ الثائر الشهيد العربي التبسي الذي ابتداء جهاده بتبسة وضواحيها، فمكث بها نحو عامين، ومنها ذهب إلى مدينة سيق قرب وهران، فبقي بها نحو عامين، عاد بعدها إلى مدينته لقيادة النهضة والإصلاح بها وبالمدن المجاورة لها. فكانت حركته المباركة سببا مباشراً للنهضة ليس في تبسة وضواحيها فحسب؛ بل وفي الشرق الجزائري عامة، وهي التي أعدت «قلوب هذه النواحي للثورة الجزائرية المباركة؛ فصارت من قلاعها الكبرى مع أوراس، ولولاهم لاختنقت الثورة في أوراس وشرقي الجزائر، فهم صلتها بتونس، وهم شرايينها الكبرى التي تمدّها بالقوة وتؤجج أوارها»². فهو وأمثاله من الصالحين المصلحين في الجزائر من أعدوا الطلائع الأولى التي تسابقت لحمل السلاح في وجه العدو دفاعاً عن الأهل والشرف والوطن والدين تلبية لنداء "الله أكبر".

ثم أصبح الأمر عملاً تنظيمياً في غاية من الإحكام، يقوم به رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث عمد مسيروها إلى تجنيد كل علماءها الموثوق بعلمهم وأخلاقهم؛ للوعظ والإرشاد والتعليم، وفق رزنامة محددة بالمكان والزمان والأسماء المكلفة بالعمل، وهذا أمر موثق بأرشيف الجمعية نقل لنا منه بعض الصور الشيخ خير الدين في مذكراته التي ننقل منها ما يلي:

« بلاغ من جمعية العلماء عن سفر المعتمدين إلى جهات القطر»³

يعلن المكتب الدائم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن المجلس الإداري قد انتدب طائفة مختارة من العلماء العاملين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على خدمة الإسلام ورفع شأن العروبة في

1/ المصدر نفسه، ج3، ص74

2/ محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح، ج2، ص33

3/ نشر بجريدة البصائر، ع282، السنة4

هذا الوطن للتجول خلال شهري أوت سبتمبر 1954م في جهات القطر الجزائري، وحدد لكل منهم منطقة يعمل فيها العمل الجدي المثمر. فعين لعمالة قسنطينة خمسة وثلاثون عالماً، منهم على سبيل المثال:

- الشيخ أحمد حماني بمدينة قسنطينة وما جاورها.
- الشيخين عبد الحفيظ الجنان ومحمد بن المكي بالمدن التالية: تاملوكة، واد زناتي، روينة، قالمة، رأس العقبة، عين عبيد، رقادة، الركيعة.
- الشيخين معمر حتي ومحمد بن المكي بمدنتي أم البواقي وعين البيضاء وما جاورهما....
وعين لعمالة الجزائر تسع علماء، ولعمالة وهران ثمانية علماء.
ومن الأنشطة التي سلكتها الجمعية في سبيل تبليغ الدين الصحيح، إحياء شهر رمضان بالدروس والمواعظ التي يقوم بها علماء الجمعية الذين تنتدبهم للقيام بهذه المهمة في جميع مراكز الجمعية ومدارسها ومساجدها، وقائمة توزيع العلماء على مختلف المناطق المذكورة بمذكرات الشيخ خير الدين¹.

بهذا المنهج الجاد والنشط اكتسحت الحركة الإصلاحية الساحة الدينية في جميع ربوع الوطن، حاملة لواء الثورة الشاملة الموصلة إلى التحرير الشامل المنشود.

الأقليات الدينية بالجزائر ونشاطها الاستعماري

أولاً/ الوجود المسيحي بالجزائر الجناح الديني للإستعمار:

بدأ الوجود المسيحي بداية استعمارية خالصة، حملته معها الجالية الفرنسية والأوروبية التي توافدت على البلاد واستقرت بها تحت الحماية المباشرة للآلة الاستعمارية الغاصبة، هذا بالإضافة إلى ثلة قليلة جدا من المسحيين العرب الذين استجلبتهم السلطات المحتلة لأغراض الترجمة وما شابه. ضمن هؤلاء توافد بعض القساوسة والرهبان والراهبات ذوي النفوذ الروحي، منهم جماعة «أخوات القديس يوسف التي استقرت سنة 1838م بالجزائر العاصمة وفي مدينة عنابة، حتى صدر في 25 أوت 1838م أمر إقامة أسقفية الجزائر، ومع نمو المستعمرة الناشئة وتزايد السكان الأوروبيين تزايد عدد العناوين الإكليروسية، وأمام الاحتياجات المتزايدة من كل جهة جاءت الجمعيات الدينية لتساند رجال الأكليروس في مهمتهم، فجاء الآباء اليسوعيين والراهبات الثالوثيات سنة 1840م، ثم الزاريون وسيدات القلب وبنات الإحسان التابعات للقديس فانسان دي بول وراهبات باستور الطيب سنة

1/ محمد خير الدين: مذكرات، ج2، ص94-98

1842م، ثم إخوان القديس جوزيف دومانس سنة 1844م¹، ثم تطورت وتوسعت تلك الجمعيات الدينية مع مرور الوقت وانتشرت أكثر وأكثر عبر أنحاء القطر الجزائري، وقد راعت «في اختيار المراكز نفسية السكان وحالة المعيشة»². ومن أهم المراكز مركز ورقلة في الجنوب الجزائري حيث يكثُر طروق المجاعات، ومركز بني إسماعيل قرب بجاية، ومركز إغيل علي ومراكز زاوارة.

كان عمل تلك الهيئات التنصيرية في أول الأمر يقوم على الإحسان بإقامة الملاجئ للفقراء والأيتام، وورشات للصناعات اليدوية البسيطة ذات الطابع الخيري، إضافة إلى عملية الإرشاد في المعتقلات والسجون والمستشفيات وبعض المدارس، وإن كانت في ظاهرها أعمال خيرية إنسانية إلا أنها في حقيقتها ماهي إلا أغطية تختفي من ورائها لتقوم بنشاطها التنصيري الذي يقوم أساساً على تشويه العقيدة الإسلامية ومحاولة محوها واستبدالها بالعقيدة النصرانية مستغلة في ذلك براءة الأطفال، وعجز المرضى وحاجة الفقراء والمساكين أبشع ما يكون الاستغلال.

ثم تطورت الأساليب التنصيرية مع المبشر الكبير فرانسوا بورغاد "François Bourgade"³ الذي كان يقول: «إن التعليم والدين يبدأان مبكراً في نفوس الأطفال، وإن العقيدة تغرس في نفس الطفل المسلم منذ الصغر؛ فعلياً أن نبدأ من حيث بدأ الإسلام»⁴، ولذلك لم يكتفي بطرق الإحسان وحده؛ بل أحدث فلسفة جديدة في وسائل التنصير أكثر فاعلية منها: التعليم، والتطبيب، وإحياء النزعة العرقية بين العرب والبربر، والاستعانة بمسلمين لنشر المسيحية، وإنشاء الجمعيات والكتب والنشريات، واستمالة المثقفين وتسخيرهم»⁵.

ثم جاء الكاردينال لافيغري الذي عمل من أجل تحقيق أهداف أساسية هي: «إحياء الماضي النصراني الروماني، وجعل الجزائر المركز الأساس لتنصير إفريقيا كلها، واعتبار التنصير ركناً أساسياً في

1/ محمد السعيد الزهراوي: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، مطبعة الاعتدال، دمشق، ط2 (1352هـ/1934م)،

ص14-21

2/ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص72

3/ هو القسيس فرانسوا بورغاد، ولد سنة 1806م وتوفي سنة 1866م، جاء إلى الجزائر بطلب من الراهبة إميلي دوفيلار، وهي أول راهبة حللت بالجزائر بغرض التنصير، وقد رأت أن تتخذ قسيساً مرشداً لفرقتها وكان تلميذها الذي ربه لاهوتياً بورغاد الذي وصل الجزائر سنة 1838م، ويعد من ألمع المبشرين في كل من الجزائر وتونس التي غادر إليها سنة 1840م تمهيداً لاحتلالها. انظر سعيد عليوان: التنصير وموقفه من النهضة، ص134-135

4/ سعيد عليوان: التنصير وموقفه من النهضة، ص134-135

5/ من الذين سخرهم بورغاد في أعماله التنصيرية: سليمان الحريري الذي ولد بتونس سنة 1824م، وتخرج من الزيتونة أستاذاً في الرياضيات. انظر: سعيد عليوان: التنصير وموقفه من النهضة، ص139

البناء الاستعماري»¹، ومن أجل تحقيق ذلك عمل بجميع الوسائل السابقة مرتكزاً عمله على الإحسان وملاجئ الأطفال، ولذلك تروي الروايات التاريخية أنه كان في مجاعة عام 1888م «يطوف الأبناء التي فتكت بها المجاعة والأمراض، والصليب في يمينه والخبز والدواء في شماله، وجمع طائفة من الأيتام واليتيمات يبلغ عددهم نحو 1500 شخصاً، فرباهم في ظل الكنيسة وعلى دين المسيحية»².
وأهم أعماله التنصيرية التي خلدت اسمه في سجل كبار المبشرين؛ تأسيسه لجمعية "مبشري إفريقيا Socièté des missionnaires d afrique" المعروفة بجمعية "الأباء البيض Les pèrers Blanes" سنة 1868م (ويعتبر نشاطها منعرجاً هاماً في تاريخ الحركة التبشيرية في شمال إفريقيا ووسطها)³.

والتبشير بكل أشكاله وصوره هو «مولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمى كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية دين أو حرية فكر أو حرية تجارة. وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي دفعته أولاً ليكون رائدها في الفتح وقائدها إلى الاستعمار، وأمدته بالمعونة والحماية، والصيانة والرعاية، فمد أشطانه... وهذا التبشير المسيحي (الإنساني) يرى أن أعدى عدو له المصلحون المسلمون لأنهم يدعون إلى الإسلام النقي، والإسلام النقي لا مطمع للتبشير في طرق حماه»⁴، ولذلك كانت جزء كبير ومعتبر من جهود المبشرين موجه ضد التيار الإصلاحية، إما بإفشال أعماله ونشاطاته بالتشويش عليه، وإما بالكيد له وبرجاله مستغلة في ذلك الوجه الآخر للتبشير وهو الآلة العسكرية.

ثانياً/ الوجود اليهودي بالجزائر ونشاطه الاستعماري:

إن الوجود اليهودي بالجزائر لم يبدأ مع الاستعمار بل سبقه بأزمان طويلة، غير أنه كان أحد الأسباب المساعدة على دخوله وتوغله وسيطرته على البلاد، فتذكر المصادر التاريخية أن الجالية اليهودية بالجزائر قد تكونت عبر عدة مراحل وتجمعت من عدة جهات؛ وأهم فئة فيها هي تلك التي تكونت من الذين جاءوا من إيطاليا، ومن الذين فروا من محاكم التفتيش بإسبانيا لأنهم بأعمالهم ومهنتهم التي اختاروها "الصياغة، والصرافة، والحرف الثمينة"؛ جعلوا من اليهود جالية ممتازة توصلت في كثير من الأحيان إلى مراكز مهمة في السلطة وبخاصة في العهد العثماني، حيث توغلوا في جميع الأجهزة تقريباً وعرفوا أسرار الدولة وأحكموا سيطرتهم على وزارة المالية خاصة، ونذكر على سبيل المثال

1/ سعيد عليوان: المرجع السابق نفسه، ص 600

2/ توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 61

3/ خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية في الجزائر (1830-1871)، الثقافة، س 11، ع 61، ص 70

4/ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 72

اليهودي بوشناق الذي كان متحكماً في التجارة الخارجية، وغير بعيد عن هذا أعمال اليهودي بكري، وباختصار كان لمثل هذه الأعمال اليهودية دوراً بارزاً جداً في التمهيد للاستعمار وفي توطينه بالجزائر. وبعد نجاح الحملة الفرنسية الغاصبة على الجزائر كان لليهود كذلك مساهمة فعالة إلى جانب المستعمرين، فقد ساهمت الجالية اليهودية في عمليات نهب وتخريب المكتبات الجزائرية العريقة¹، كما ساهمت الجالية اليهودية في أعمال الجوسسة والاستكشاف التي كان يقوم بها بعض المستشرقين وبعض العسكريين الفرنسيين بغرض التمكين للاستعمار، وكان دورهم يتمثل خاصة في تعريف المستعمرين بالأماكن واللهجات والعادات والأعراف والتقاليد، أضف إلى ذلك مسألة الترجمة. وإذا كانت الجالية اليهودية قد تطوعت لإعانة الاحتلال؛ فالاحتلال بدوره قدر هذه المجهودات فمع تعديه السافر على الإسلام والمسلمين «لم يكتفي بذلك حتى احتضن اليهودية وحمى أهلها وأشركهم في السيادة ليؤلبها مع المسيحية على حرب الإسلام، ويجندها في الكتائب المغيرة عليه»². ولذلك حرصت السلطة الاستعمارية على «ربط اليهود بالوجود الاستعماري لتضربهم بالمسلمين، فأدمجوا في المجتمع الفرنسي، وخصوا بمراسيم خاصة، وأنشأ لهم ثلاث مجامع دينية يهودية بوهران، وبالجزائر، وبقسنطينة وأعطوا امتيازات على حساب المسلمين، فتوغلوا في الإدارة والجيش والعدالة والشرطة والقضاء...، كما عمل الاحتلال على تنمية الشعور بالحق ضد المسلمين، فتولد لدى الجزائريين الشعور بالإهانة»³ والاستفزاز؛ في مقابل التعالي والفوقية لدى اليهود الذين تجرءوا ليس على المسلمين في أشخاصهم فحسب؛ بل وصلت بهم الجرأة إلى التعدي على حرمتهم ومقدساتهم، وليس أشهر من حوادث صيف 1934م بقسنطينة التي تسبب فيها جندي يهودي تعدي على حرمة أحد مساجد قسنطينة وسب الرسول (ﷺ)، فقام لأجل ذلك سكان المدينة كلهم للدفاع عن كرامتهم وحرمة دينهم ومقدساتهم.

ولم يكتفي اليهود بكل تلك الطرق والوسائل المناصرة للاستعمار، بل هي تناصره بحربها الدائمة على الإسلام بوسائل أخرى شهد التاريخ من عهد أوائل الأنبياء إلى عهد نبينا (ﷺ) وإلى يومنا هذا بأنها وسائل يهودية خالصة تفنن فيها اليهود أطوار تاريخهم الطويل، ومن ذلك سياسة تفكير الشعوب

1/ نظر في ذلك: جيلالي صاري: مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة، الثقافة، س14، ع80، ص153-158

2/ محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر (مجموعة المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر خاصة)، دار المعارف، ص55-56

3/ أحمد صاري: أثر السياسة الاستعمارية في العلاقة بين المسلمين والجالية اليهودية خلال الجمهورية الثالثة (1870-1939م)، محاضرة بالملتقى المغاربي حول الأقليات الدينية في المغرب الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، يومي: 5 و6 ماي 2003م

بالاحتكار الاقتصادي النهم واستعمال الربا الفاحش، ففي الجزائر جعلوا من الجزائريين «بقرة حلوباً يستدرونها بوسائل الحيلة والمكر، تبدأ من طرف الأهالي بالاستدانة البسيطة، وتنتهي من طرف اليهودي بالاستيلاء على الأرض والعقار»¹، فكانوا بذلك أحد أهم أسباب الفقر في البلاد. ولم يكتفي اليهود بالإفساد في الجانب الاقتصادي فحسب؛ بل كان إفسادهم في الجانب الاجتماعي والأخلاقي أقيح، ذلك لأنه «من تقاليد اليهودية أيضاً أنها لا تضيع أية فرصة للمقايضة بالمصالح الجنسية، والمنافع القومية المادية، لاتراعي في ذلك قديماً مأثوراً ولا تاريخاً محفوظاً، وإنما تقدر المصلحة بالحاضر وإن كان زائفاً أو مدخولاً»².

ولذلك نجدهم وراء كل رذيلة وفساد عمّ المجتمع الجزائري، وهذا ما زاد في مشاعر النقمة والسخط والاستفزاز لدى المسلمين لأنهم وجودوا اليهود في نشاط دؤوب و«سعي حثيث لفتح الحانات، ودور اللهو، والقمار»³، وبيوت التفسخ والمجون والدعارة وكل ماهو من باب الفساد والإفساد. وكما قال شاهد عيان الشيخ عمر راسم وهو من أكبر الذين فضحوا أعمال اليهود داخل الجزائر وخارجها: «اليهود أمة قاسية القلب، لا يلذ لها عيش، ولا تطيب لها حياة إلا بأذيتها لغيرها فعلاً، فإن لم تستطع فلساناً، ولو أرادت سرد ما رأيته بعيني، وسمعته بأذني مما يؤدون به أمتي، بل والمستعمرين في بلادني، لما كفتني الأوراق والمحابر، ولما كفتني الأيام التي عشتها مرتين لتسطير جميع، بل ولا بعض مكرهم ومكائدهم التي يقومون بها طبق طبائعهم ومبادئهم ... وما يهود الجزائر بالنسبة إلى يهود أوروبا وأمريكا إلا ضعفاء، فقراء، جهلاء، ومع هذا فإنهم يقومون بما تعجز عنه أكابر السياسيين، وذلك لارتباطهم مع أبناء جنسهم المقيمين في البلاد المتمدنة المتكلمين عليهم عند الحاجة»⁴.

الخاتمة: لقد كان الإسلام طوال الفترة الاستعمارية خطراً داهماً مترقبا على الدوام من السلطات الاستعمارية، لأجل ذلك لاحقته وضيق عليه بكل الوسائل، مع محاولة استبداله بدين جديد مشوه استعانت على صنعه بأفراد من المسلمين أنفسهم. في هذه الأجواء كانت الهيمنة للفكر الطريقي؛ الذي استعصى في بادئ الأمر على المخططات الاستعمارية، ثم ما لبث أن اخترق وتمّ تدجينه. لكن ما إن ظهرت الحركة الإصلاحية وبدأت في جهودها التجديدية والتنويرية بالشرق الجزائري بقياد الشيخ ابن باديس؛ حتى اكتسحت الميدان وانتشرت عبر كل الوطن، كاشفة لزيف الأباطيل والانحرافات الطرقية،

1/ محمد ناصر: عمر راسم المصلح الثائر، ص 37

2/ محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 57

3/ محمد ناصر: عمر راسم المصلح الثائر، ص 37-38

4/ محمد ناصر: عمر راسم المصلح الثائر، ص 38

وكذا المكائد الاستعمارية، فكانت بحق نعم الممثل للدين الإسلامي الصحيح المبني على القرآن والسنة علماً وعملاً، وكان من أهم نتائج الحركة الإصلاحية المساهمة في التمهيد لقيام الثورة التحريرية الكبرى وإعداد الطلائع المشاركة فيها.

أما الديانتين اليهودية والمسيحية فكانتا شريكاً ممتازاً للاستعمار في جميع أعماله العدائية؛ وإن تخفت في كثير من الأحيان؛ في ثوب الأعمال الاقتصادية والخيرية والإنسانية.